التراث في شعر عبد الرحيم محمود*

إسماعيل أحمد العالم

مفهوم التراث مفهوم إشكالي، لكل دارس إزاءه موقف ووجهة نظر، والتراث بعامة كل ما مضى من قيم ووصل إلينا حيًا أو ميتًا، فمنه ما وافق عصره وصلح له وانقضى بانقضائه، ومنه ما وافق الإنسان واستمر به ولمصلحته، وعاش حتى الوقت الراهن(١).

والتراث في الشعر العربي الحديث موضوع مطروح للنقاش من بدايات القرن، ومازال يشتد حينًا ويخبو أحيانًا، يقفز أو يعلو إلى السطح في فترات التحول والانعطاف والإحساس بالكيان والبحث عن الهوية أو الذات، ويتوارى أو يهدأ في فترات السكون والركود والاسترخاء، وما وصل فيه الدارسون إلى حسم أو ما يشبه الحسم، وكيف يصح ذلك والناس والأفكار والقضايا إشكالات معرفية، وآراء ووجهات نظر، يتلاقى بعضها أو يتباين، ويتفق أو يتغاير(٢). فعنه (أي التراث) يقول صلاح عبد الصبور: "لا يصلب أدبنا الحديث وتستقيم مفاهيمه إلا إذا واجهنا تراثنا وتأملناه لنأخذ منه ما يصلح لنا في مستقبل أيامنا"(٣). ويقول أيضًا: "التراث ليس تركة جامدة ولكنه حياة متجددة، والماضي لا يحيى إلا في الحاضر"(٤).

ويرى البياتي في التراث نهرًا زاحفًا نحو المستقبل يكتسب أصالة جديدة في مساره، مميّزًا بين دلالته الثابتة التي تمثل الانقطاع والدلالات المتغيرة التي تكفل التواصل، ويعتقد البياتي أن "إعطاء الحياة الحقيقية لتراثنا العربي القديم تتمّ عن طريق التجديد لا عن طريق التقليد..." (٥).

---

* عبد الرحيم محمود شاعر فلسطيني، جمع ديوانه وقدّمه كامل السوافيري.

١- نعيم اليافي، "الشعر العربي الحديث والتراث بين الهرب والاستدعاء"، **مجلة المعرفة السورية**، العدد ٣١٢، ١٩٨٨م، ص٤٦.

٢- المرجع السابق، ص ٤٣.

٣- صلاح عبد الصبور، **حياتي في الشعر**، طبعة بيروت، ١٩٦٩م، ص ١٤٤-١٥٧.

٤- المرجع السابق.

٥- عبد الوهاب البياتي، **تجربتي الشعرية**، طبعة بيروت، ١٩٦٨م، ص ١٨٥-١٨٦.

ولعلَّ خليل حاوي بوعيه وثقافته وتجربته الشعرية المتميزة عبّر خير تعبير عن مسألة نهضة الشعر العربي الحديث التي أطلقناها نحن الروّاد عبر الخمسينات، أرى أننا كنّا نحاول واعين أن نحدث ثورة تجعل الشعر الحديث ينفصل عن التراث الشعري العربي بقدر ما يتصل به، وكان كلّ منا يحاول الانطلاق مما يراه عناصر حية في التراث. وأعتقد أن كلّ نهضة شعرية في أمة تحمل تراثًا شعريًا عريقًا متراكمًا لا بدّ لها من العودة تختلف عمّا يدعى بالسلفية الشعرية، ذلك أنها ليست عودة لإحياء الأنماط والنماذج التي استقرت في قوالب جامدة بل إلى الينابيع التي تفجرت منها روح حيوية تولّد أنماطًا ونماذج. لهذا كان في شعرنا ما يشبه الاستلهام لروح الفطرة في الشعر الجاهلي، والثورة في الشعر العباسي، التي انتهت إلى غايتها من التطور في نتاج المتنبي ..." (٦).

والتراث عند أدونيس هو القوة الحيّة التي تدفعنا باتجاه المستقبل(٧)، لعلّ كلّ ما ذكرت كان مسوّغًا لهذه الدراسة التي ترمي إلى الكشف عن مبلغ اهتمام الشعراء المحدثين بالتراث، وفهمهم له، وكيفية التعامل معه، والوقوف عنده، ومدى استلهامه، وطبيعة العلاقة به أو الزاوية التي منها إليه ينظرون.

ولما كانت زاوية الرؤية تختلف بين شاعر وشاعر، ونمط الاستلهام يتباين من هنا إلى هناك، وطاقة التراث على الإلهام والإيحاء والتفجير تتنوع بين السلب والإيجاب، لذا ارتأت الدراسة أن تقتصر على واحد من الشعراء المحدثين هو عبد الرحيم محمود، لترى مدى حضور التراث في شعره، ومدى توظيفه في سبيل إنسان هذا العصر. ومن خلال استقراء التراث ومجالاته في شعر عبد الرحيم، يمكن تناوله على النحو التالي:

- التراث الديني في شعر عبد الرحيم.
- التراث الشعري في شعره.
- التراث اللغوي في شعره.

التراث الديني:

استبطن عبد الرحيم التراث الديني الخصب، لاكتشافه جماليته الذاتية وعبقريته في الإفصاح عن رؤيته الخاصة، وموقفه الشعوري الذي يحسّه تجاه واقعه، وليعبر به أيضًا عن أفكار معاصرة وصور جديدة

٦- محيي الدين صبحي، "مقابلة مع خليل حاوي"، **مجلة المعرفة السورية**، دمشق، العدد ١٣٣، ١٩٧٣م، ص ٩٧، وانظر: ريتا عوض، "الكتابة الشعرية والتراث"، **مجلة فصول**، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني ، صيف ١٩٩٦م، ص ١٩٥ وما بعدها، وانظر: نعيم اليافي، "الشعر العربي الحديث والتراث"، ص ٦٦.

٧- أدونيس، **فاتحة لنهايات القرن**، طبعة بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٤٤.

تتصل بمشاعر الإنسان المعاصر وتعبّر عن رؤاه وأفكاره ومشاعره، ولأنه يحمل إيحاءات إن استلهمه الشاعر جيدًا يكسب شعره حياة وثراء، ولعلّ كلَّ هذا كان دافع الشاعر عبد الرحيم لمدّ يده غير مرّة إلى التراث الديني ممثلًا بالقرآن الكريم.

فعندما يقول:

رجحتْ موازين الحليف ومن نكنْ معه يرجَّح بالعظيم الأكثر(٨)

يشير إلى رجحان كفة الحلفاء إذ حققوا النصر على العثمانيين، رادا الفضل في ذلك إلى وقفة العرب ومساندتهم، إن مضمون الشاعر في البيت الشعري هنا مستعار من وصف القرآن الكريم لمن والى الله ورسوله والمؤمنين، فتحققت له الغلبة على أعدائه، إذ ورد في قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(٩).

إن نظرة متأنية في النصين القرآني والشعري ـ تفضي إلى غير شيء منها أن هناك تماثلًا بين النصين، فالنصّ القرآني أفصح عن مصير من سلك في جادة الله ورسوله والمؤمنين، إذ تمت لهم الغلبة والنصر، والنصّ الشعري أفصح عن مصير الحلفاء إذا تمت لهم الغلبة والنصر أيضًا بفضل المساندة العربية ضد العثمانيين، ولكنه تماثل بعيد عن الجحود إذ حمّل الشاعر النص القرآني وظيفة من خلالها أفصح عن رؤيته وجسّدها عندما أراد أن يذكر ـ على وجه التخصيص ـ حكومة الانتداب البريطانية بما قدمه العرب لها وما قدمته لهم، فالعرب قدموا النصرة، وحكومة الانتداب قدمت (وعد بلفور)، وشتان ما بين هذا وذاك، ومنها أيضًا أن الشاعر استمدّ روح النص القرآني دون نسخه بحرفه ونصه، ليوظفه في الكشف عن رؤيته وموقفه من وعد بلفور. ويقول الشاعر في الحليف وعدم إيفائه بما يعد:

عَدَرَ الحليفُ وأيّ وعد صانه يوماً وأية ذمّة لم يخفر

لما قضى وطراً بفضل سيوفنا نسى اليَد البيضاء ولم يتذكر(١٠)

استلهم عبد الرحيم في البيت الشعري الثاني قول الله تعالى: ﴿...فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(١١)،

٨- عبد الرحيم محمود، الديوان، جمع وتقديم: كامل السوافيري، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١١٧.

٩- سورة المائدة، الآية: ٥٦.

١٠- عبد الرحيم محمود، الديوان، ص ١١٨.

١١- سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

توضح الآية الكريمة أمرًا جائزًا مباحًا لا إثم فيه ولا عتب، وهو تزوج امرأة الابن بالتبني بعد تطليقها، أما الشاعر فإنه يبين في بيته الشعري جحود الحليف وتنكره لليد التي ساعدته بعد تطليقها، فإجراء موازنة بين ما ذهبت إليه الآية، وما ذهب إليه البيت الشعري ـ توضح أن الشاعر قدم هذا السياق القرآني بوعي جديد يتصل بمرئياته، فجاء بيته الشعري يعتب على الحليف تنكره لليد التي ساعدته، وتوضح أيضًا اقتصار الشاعر على جزئية صغيرة من الآية الكريمة ذات المساحة المكانية الواسعة(١٢). وفي قول عبد الرحيم:

الحـــق ليـس براجـــع لذويـــه إلا بالحـــراب(١٣)

إشارة إلى اعتماده ما ورد في الآية القرآنية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(١٤). فالآية القرآنية تحمل الإذن لأصحاب رسول الله عليه السلام بالقتال لأنهم ظُلموا إذ أُخرجوا من ديارهم، فهذا الأمر اتخذه عبد الرحيم أداة استطاع بواسطتها أن يحث قومه على حرب مغتصبي حقوقهم، لذا جاء النص القرآني وبيت الشاعر متناغمين، إذ وظف الشاعر ما ورد في الآية القرآنية توظيفًا ساعده في بث الحماسة بين أبناء قومه لكي يستخدموا القوة ضد أعدائهم، وما يلحظه الدارس هنا أن الشاعر في اعتماده على النص القرآني قد كشف عن قدرته على التفاعل معه، والإفادة منه، إذ نقل من خلال موقفه الشعوري الذي يحسه تجاه الغاصبين وتجاه قومه.

وعندما رثى عبد الرحيم الأبطال الشهداء لم يجد ملاذًا يحتمي به ويسعفه في نقل مشاعره وأحاسيسه تجاههم غير القرآن الكريم، ففي قوله:

هم تعاويذُ الحمى يُقْصى بهم عنه مكر السوء أو كيد الحسود
تحرق العاتيَ أنفاسُهُم ويذيبون بها غلّ القيود
وعلى أكتافهم تجنى المنى ويشاد الصّرح للعيش الحميد(١٥)

اتكأ في البيت الشعري الأول على قوله تعالى: ﴿...وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(١٦).

١٢- المصدر السابق.
١٣- الديوان، ص ١٢٥.
١٤- سورة الحج، الآية: ٣٩.
١٥- الديوان، ص ١٣٣- ١٣٤.
١٦- سورة فاطر، الآية: ٤٣.

فالآية القرآنية تحمل معنىً سلبيًا إذ أشارت إلى نفور قريش وتباعدها عن الحق، بسبب استكبارها على أتباعه، وعتوها وطغيانها في الأرض، ومن أجل المكر السيئ بالرسول وبالمؤمنين والكيد لهم، فوضحت الذات الإلهية أن وبال المكر السيئ لا يحيط إلا بمن مكره ودّبره، فالشاعر أفاد من النص القرآني، ولكنه جعله يتخذ بعدًا إيحائيًا جديدًا مغايرًا للبعد الأصلي، إذ جعل الأبطال الشهداء بما قدموه تعاويذ للوطن يصرفون عنه مكر الماكرين وكيد الحاسدين، وبهذا يكون سياق النص القرآني الأصلي مباينًا لسياقه الجديد في شعر الشاعر، ومعنى الكلام أن الشاعر في اتكائه على النص القرآني أيضًا قد عمل على توظيفه توظيفًا جديدًا. وعندما يقول عبد الرحيم:

ثم ما ساءك من هذي الدنى ... ما الذي ردّ لك الطرف كليلا؟(١٧)

إن دنياك التي تصنعها ... قهر الأشياء تفسيرًا جميلًا

وتبسم يا عزيزي

فالشاعر هنا يستعير في بيته الأول ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١٨)، ومن خلال التأمل في سياق الآية القرآنية نلحظ أن الله يعظم بديع خلقه لسبع سموات متطابقة بعضها فوق بعض، خلقًا في غاية الإحكام والإتقان، ونلحظ أيضًا أن الله ينبه على باهر قدرته تعالى، إذ دعا السامع أن ينظر بعينه مرةً بعد أخرى في هذه السموات العجيبة، والنتيجة ارتداد بصره خاشعًا ذليلًا، وكليلًا متعبًا، قد بلغ الغاية في الإعياء، دون أن يرى شيئًا من الخلل والعيب، إن هذا المعنى القرآني وظفه الشاعر توظيفًا جديدًا مغايرًا لما جاء عليه النص القرآني، إذ أراد أن يغرس البسمة على شفاه الناس، ويجعلهم يعيشون الهناءة والسعادة في دنياهم ويكونوا متفائلين مقبلين على الحياة، وبهذا يكون الشاعر قد انحرف بالنص القرآني عن المسار الذي وضع له، وأدخله في مسار ينسجم ومرئياته الفكرية التي يؤمن بها تجاه الدنيا.

وعبد الرحيم هنا لم يتكئ على الآية القرآنية بأكملها وإنما انتزع جزءًا منها ليقدمه في قالب ينمّ عن تجربته الذاتية في الدنيا، كما أنه لجأ إلى إحداث تغيير في مفردات النص القرآني، فلفظ "البصر" استبدله بلفظ "الطرف"، ولفظ "حسير" استبدله بلفظ "كليل"، وفي ذلك إشارة إلى عدم نقل النص القرآني الذي أفاد منه في شعره نقلًا حرفيًا.

١٧- الديوان، ص ١٧١.

١٨- سورة الملك، الآية: ٤.

وإذا كان المثال الشعري السابق ينم عن نظرة التفاؤل لدى عبد الرحيم تجاه الدنيا، فسرعان ما نلحظه في موضع آخر من شعره يصدم هذه النظرة ويعمل على إلغائها، إذ يقول:

كرهتُ ذا العالم هل مأبقٌ في عالم آخر للأبق؟
ضاقت بي الدنيا وإني بها أضيقُ، بالي من فتىً ضائق(١٩)

إن الشاعر هنا يبرز رؤية ذاتية خاصة به من خلال تأملاته ونظراته في الحياة، ولتدعيم تلك التأملات والنظرات وجدناه من خلال بيته الشعري الثاني يعتمد جزءًا من الآية القرآنية: ﴿...وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾(٢٠)، فالآية القرآنية تتحدث عن يوم حنين إذ اغتر المسلمون بكثرة عددهم، وظنوا أنهم لن يغلبوا، فلم تنفعهم الكثرة ولم تدفع عنهم شيئًا، وضاقت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بهم من شدة الخوف ثم ولّوا مدبرين منهزمين، لقد أرادت الذات الإلهية ـ من خلال الآية الكريمة ـ أن تعلّم المسلمين درسًا مفاده أن النصر بيد الله ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأن الله ينصر القليل على الكثير إذا شاء، إن عبد الرحيم يفيد من الجزئية ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾، ويبرز من خلالها نظراته الخاصة تجاه الدنيا، وبعمله هذا يكون قد أبعد الجزئية القرآنية عن سياقها في القرآن لتأخذ سياقًا جديدًا يتفق ونظراته. ويقول عبد الرحيم:

لقد اعتصمتُ بحبل حبك فاعتصم حبا بحبلي(٢١)

إن البعد الشعوري لدى عبد الرحيم تجاه صاحبته دفعه إلى تذكر قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢٢)، فالنص القرآني يتحدث عن دعوة المؤمنين للتمسك بدين الله وكتابه، والحث على ألّا يتفرقوا ويختلفوا فيه اختلاف اليهود والنصارى من قبلهم، وإذا كان التمسك بدين الله وكتابه وسيلة للنجاة من الفتن ووسيلة تفضي إلى نيل مرضاة الله وتحقيق ما يتطلع إليه المؤمنون من ثواب وأجر، فإن الشاعر يرى في تمسكه بحب حبيبته وسيلة للنشوة، ووسيلة لقهر عذّاله ولائميه، فإن تنعيم النظر في النص القرآني وفي البيت الشعري يفضي إلى أن الشاعر قد

١٩- الديوان، ص ١٧٨.
٢٠- سورة التوبة، الآية: ٢٥.
٢١- الديوان، ص ١٩٤.
٢٢- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

غيّر في مسار النص القرآني وإذ أخضعه لسياقه الشعري من أجل أن يعبر عن رؤيته التي أراد، لذا جاء التمسك بحبل المحبوبة مكافئًا للتمسك بدين الله وكتابه، وهذه إشارة إلى قدرة الشاعر على أن يبتني إطارًا جديدًا للنص القرآني يرسم من خلاله رؤيا التي أحبّ.

وحرص عبد الرحيم أن يرقي بشعره عن المباشرة الجامدة إذ قال:

أدِرِ الكؤوس مليئةً وذرِ المثالثَ والمثانى
بل بالدنان فعاطنى لا أرتوى بسوى الدنان(٢٣)

دفعه ليستوحي ويستلهم قوله تعالى: ﴿...فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ...﴾(٢٤)، إن الآية القرآنية وما ذهب إليه الشاعر يوقفنا على مضمونين مختلفين، فالآية القرآنية تجيز للمسلم أن ينكح اثنتين من النساء، وإن شاء ثلاثًا، وإن شاء أربعًا، أما ما ذهب إليه الشاعر فهو تصوير لجانب اللهو والمجون المتمثل في معاقرة الخمر، وتصوير للنهم الشديد المتمثل بعدم الاكتفاء بكأسين ولا بثلاثة منها، وهذه إشارة إلى التعلق الشديد بها، إن الشاعر هنا في اعتماده على جزء من الآية القرآنية المتمثلة بـ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أضفى على شعره أجواء روحية ترفد تجربته الشعرية بدلالات نفسية، وأبعاد موضوعية أرادها هو، وبعمله هذا يكون قد انحرف بالنص القرآني عن مساره الأصلي الذي وضع له، ويكون قد لجأ أيضًا إلى إحداث تغيير في صيغتي "مثنى وثلاث"، وإحداث تقديم وتأخير فيهما، إذ قال "المثالث والمثاني"، ولعلّ هذا اقتضته الضرورة الموسيقية والقافية.

وقوله:

هــاتِ اسـقني واحْــلُل براحك عُقْدَةً حَلّتْ لساني(٢٥)

مستمد من قوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾(٢٦)، فالآية القرآنية مناجاة تحكى ما طلبه موسى عليه السلام من ربه وهو حلّ تلك اللكنة (أي الحبسة) التي كانت في لسانه، حتى يفهم قوم فرعون كلامه، فأعطاه الله ما سأل وما طلب، بينما البيت يحكي مناجاة الشاعر ساقي الخمر، أن يسقيه إياها لأنه يرى فيها قدرة على حل الحبسة من لسانه ومعنى الكلام أن الخمرة معادل موضوعي للذات الإلهية،

٢٣- الديوان، ص ٢١٠.
٢٤- سورة النساء، الآية: ٣.
٢٥- الديوان، ص ٢١١.
٢٦- سورة طه، الآية: ٢٧.

فالخمرة تحل الحبسة من لسان الشاعر، والله يحّل الحبسة من لسان موسى، فالشاعر بعمله الظاهري هذا يكون قد جعل ما هو منكر وما فيه أذى ـ ممثّلا بالخمر ـ مباركًا إذ عالج الحبسة، ولعّل هذا يخفي تحته سخرية ممن يعاقر الخمر، ومن هنا جاء التباين بين سياق الآية الأصلي وسياقها الجديد الذي وضعت فيه.

وقوله على لسان ليلى الصفوري تخاطب إبراهيم طوقان:

فكنت أنادي الحريَق الحريَق ونادیتَ یا نارُ کُوني أحرّ(٢٧)

فيه مدعاة لإطالة النظر في البيت الشعري، لعلنا نستشف نقد الشاعر للواقع المعيش، وإدانته إياه إذ ينقل صورة مؤثرة تحرك المشاعر على لسان تلك الفتاة التي تعاني ممّا بها من وجد وشوق من أحبت، بينما الطرف الآخر لا يأبه لعلّهُ يسخر ويعمل على إلحاق الأذى بمن أحبّ، ما كان للشاعر أن يذهب ما ذهب إليه في عجز بيته الشعري لولا اعتماده على الآية القرآنية المتمثلة بـ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾(٢٨)، لقد تفاعل عبد الرحيم مع الآية القرآنية وأفاد منها في إظهار موقفه الذاتي الذي شعر به تجاه معاناة تلك الفتاة، وهو تفاعل وإفادة تنّم عن قدرة الشاعر على تحويل النص القرآني عن معناه الأصلي وإعطائه معنى جديدًا مغايرًا، فالنص القرآني يشير إلى التعاطف الإلهي مع نبيه إبراهيم عليه السلام إذ جعل النار التي أوقدها قومه بردًا وسلامًا، بينما جعل الشاعر ـ على لسان الطرف الآخر ـ نار الوجد والشوق تزداد اتقادًا واشتعالًا.

وفي سورة فاطر نهى الله عّز وجل رسوله عليه السلام ألا يغتنم ولا يهلك نفسه حسرة على من ترك الإيمان واستحسن الكفر والضلالة فالله تعالى يصرف من يشاء عن طريق الهدى، ويهدي من يشاء، تبعًا لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾(٢٩)، لقد وظف الشاعر جزءًا من هذه الآية، وقدمه في إطار تجربته الخاصة ليعبر به عن نظرته إلى عالمه إذ يقول:

هاتِ من ذكرى زمان العزّ هاتِ حبّذا الماضي لي ما هو آتِ

يا زمانًا كلما ذكرتُهُ ذهبت نفسي عليه حسرات(٣٠)

فالشاعر هنا يفضل أشياء الزمن الماضي على أشياء الزمن الحاضر، وبموازنة بين ما ذهبت إليه الأبيات الشعرية وما ذهبت إليه الجزئية القرآنية يتضح عدم التماثل بينهما، إلا أن قدرة الشاعر على التفاعل

٢٧- الديوان، ص ٥١٢.

٢٨- سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

٢٩- سورة فاطر، الآية: ٨.

٣٠- الديوان، ص ٢٤٦.

مع الجزئية القرآنية المقتبسة جعله يستلهم عبث الكافرين ليجعله متناغمًا مع عبث أشياء الزمن الحاضر، وهذا بالتالي دفعه إلى الاحتماء بالماضي وأشيائه. **وعندما قال عبد الرحيم:**

كتابٌ أضاء دَياجِي الظُلْمْ وأهدى الأنامَ لأهْدَى أمَمْ(٣١)

استلهم هنا مضمون بيته الشعري في صدره وعجزه من غير آية قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٣٢)، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾(٣٣).

لعلّ دافع الاستلهام هنا لم يكن من أجل توظيف ما ورد في النص القرآني، بقدر ما كان هذا المضمون القرآني الذي استلهمه الشاعر مختزنًا في لا وعيه، لذا لجأ إلى تفريغه في قالب شعري، ومثل هذا كثير في شعر عبد الرحيم، **فلعلّ المختزن يكون كلمة قرآنية واحدة ككلمة "وأعدوا"**، في قوله:

(وأعدوا) لم يَقُلْها لكُمْ عبثًا فَلْتَحْسِنُوا في (الذِكرِ) نَظْرَه(٣٤)

فيه إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ...﴾(٣٥).

وكلمة "مثقال ذرّة" في قوله:

فانهجوا نهجًا قويمًا واعمَلُوا **واعملوا لا تبخَسُوا** (مِثقَالَ ذَرّه) (٣٦)

فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾(٣٧).

ولعل المختزن في لا وعي الشاعر يكون مضمون آية قرآنية نقله إلى فنه الشعري، كقوله:

ما أهجر الشعبَ كاليأسِ فإن يئِسَ الشعْبُ يكون اليأسُ قبْرَه(٣٨)

٣١- الديوان، ص ٢٥٨.
٣٢- سورة إبراهيم، الآية: ١.
٣٣- سورة النحل، الآية: ٨٩.
٣٤- الديوان، ص ٢٦١.
٣٥- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
٣٦- الديوان، ص ٢٦٤.
٣٧- سورة الزلزلة، الآية: ٧.
٣٨- الديوان، ص ٢٦٤.

فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾(٣٩). وقوله:

وإذا نَفَحَتْ بِتُرْبَةِ حَلَّتْ بِنَفْحَتِكَ الرَمْ(٤٠)

فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾(٤١)، وقوله:

ولنا في كل يومٍ قَالَةٌ فأرنا فِعْلَةً في العُمْرِ مرة(٤٢)

فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٤٣).

التراث الشعبي:

إن متتبع نصوص الشعر العربي الحديث بعامة، وشعر عبد الرحيم بخاصة يلاحظ تسرب التراث ممثلًا بالشعر إلى أرضية الشاعر الثقافية في نصه الذي ينشئه(٤٤)، من خلال المحاكاة أو المعارضة أو الإشارة والاستلهام والتوظيف المتنوع لهذا الشعر التراثي في شعر الشاعر المعاصر (٤٥).

وما كان للتراث ممثلًا بالشعر أن يتسرب إلى نتاج الشاعر المعاصر إلا لأنه "استقرّ في وعيه أنه ثمرة الماضي كلّه، بكل حضارته، وأنه صوت وسط آلاف الأصوات التي لا بدّ أن يحدث بين بعضها تآلف وتجاوب، فهذا الشاعر قد وجد في أصوات الآخرين تأكيدًا لصوته من جهة، وتأكيدًا لوحدة التجربة الإنسانية من جهة أخرى، وهو حين يضمن شعره كلامًا لآخرين بنصه فإنه يدلّ بذلك على التفاعل الأكيد بين أجزاء التاريخ الروحي والفكري للإنسان"(٤٦).

وللتدليل على الإشارات الضمنية للتراث الشعري العربي في شعر عبد الرحيم ـ يليق استقصاء

٣٩- سورة يوسف، الآية: ٨٧.

٤٠- الديوان، ص ٢٧٠.

٤١- سورة يس، الآية: ٥١.

٤٢- الديوان، ص ٢٦٣.

٤٣- سورة الصف، الآية: ٣.

٤٤- انظر: عبد النبي اصطيف، "الشعر العربي الحديث والتراث"، مجلة التراث العربي، دمشق، العددان ٢٥، ٢٦، تشرين الأول سنة ١٩٨٦م، وكانون الثاني ١٩٨٧م، ص ٩٨.

٤٥- انظر: إبراهيم السعافين، مدرسة الإحياء والتراث: دراسة في أثر الشعر العربي القديم على مدرسة الإحياء في مصر، دار الأندلس بيروت، د.ت.

٤٦- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م، ص ٣١١.

شعره ودراسته للوقوف على مدى استحضار التراث الشعري في شعر الشاعر، فقوله:

وأحمى حياضي بحد الحُسام فيعلم قومي بأني الفتى(٤٧)

إشارة إلى مشاركته المجاهدين الأحرار في الذود عن أرض وطنه وأهله، وإشارة أيضًا إلى دوره في الجهاد إذ بذل جهدًا زائدًا وشجاعته نادرة أفضت إلى اعتراف القوم بمنزلته الاجتماعية.

فقارئ بيت عبد الرحيم الشعري يلحظ بسهولة استحضار بيت طرفة بن العبد والصدور عنه في بيته الشعري المنتج إذ قال:

إذا القوم قالوا من فتى خِلْتُ أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلدِ(٤٨)

ومعنى الكلام أن بيت طرفة الشعري زاحم عبد الرحيم في ذهنه ونفسه، فالقوم نادوا إذ نابهم خطب جسيم مَنِ الشجاع الذي يكفي مُهِمًا أو من يدفع شرا؟ فتيقن طرفة أنه المقصود بذلك فبادر ولم يتثاقل، فطرفة في بيته يفخر بذاته، وعبد الرحيم في بيته هنا يفخر بذاته أيضًا، إذ حضر في ذهنه صوت من التراث يماثل صوته ويوائمه، فاستلهمه، وعبد الرحيم في استلهامه بيت طرفة لم ينقله بتركيبه لفظًا وحرفًا، ولم يحوّله عن موضوعه الذي وضع له، دافعه أنّه يخدم التوجه الذي ينطلق منه عبد الرحيم.

ولعلّ عبد الرحيم يحول البيت الشعري المضمن عن موضوعه الأصلي إلى موضوع جديد، فقوله في رثاء القائد عبد الرحيم الحاج محمد:

أيّ لفظ يَسَعُ المعنى الذي منك أستوحيه يا وَحْيَ قصيدي
لا يحيط الشعرُ فيما فيك من خُلُق زاكٍ ومن عَزْمٍ شديدِ(٤٩)

يعبر عن الحزن الذي انتابه إثر استشهاد القائد عبد الرحيم، ويشير في الوقت نفسه إلى قصور الشعر واللغة عن إدراك ما يتمتع به الشهيد من "خلق زاك ومن عزم شديد" فالشاعر هنا نقل تضمين أبي تمام في تغنيه بفتح عمورية إذ فتحت في عهد المعتصم إذ قال:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب(٥٠)

٤٧- الديوان، ص ١٢٣.

٤٨- طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق: علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ٥٤.

٤٩- الديوان، ص ١٣٠.

٥٠- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الديوان مع شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزّام، دار المعارف بمصر، ط٤، ج ١، ص ٤٥.

فأبو تمام يشير إلى أن الشعر والنثر قاصران عن إدراك جوانب الفتح وأعماقه، فبيت عبد الرحيم يتعلق بالرثاء وما يتبعه من توجع وحزن، وبيت أبي تمام يتعلق بالفرح والسعادة إذ فتحت عمورية، ومعنى الكلام أن بيت عبد الرحيم قد وضع في سياق جديد أكسبه بعداً جديداً، وهذا لا يعني أن هناك تعارضًا بين موقف عبد الرحيم وموقف أبي تمام، وإنما يعني قدرة الشاعر المعاصر على استغلال كلّ ما يفيده ويثري رؤيته(٥١).

ويقول عبد الرحيم ـ إذ يعتب الحليف بسبب وعد بلفور وما حمل في طياته من ظلم للعرب، ويفخر في الوقت نفسه بالعرب لما قدموه من غوث للحليف ونصرته.

وأتى الحليفُ وقام في أعتابنا متحيراً إنّا هُدى المتحيِّر
واستنصرَ العُرْبَ الكرامَ إنهم غوث الطريد ونصرة المستنصر(٥٢)

مستمد من قول أبي الطيب المتنبي:

وبهم فخُر كل من نطق الضـا دَ وَعَوْذُ الجاني وغوثُ الطريدِ(٥٣)

إذ يفخر بقومه ونفسه، فقوم أبي الطيب أفصح العرب، وفخر للكل العرب، فإذا جنى جان وخاف على نفسه، عاد بهم ولاذ، ليأمن على نفسه، والمطرود إذا طرد ونفى استغاث بهم ولجأ إليهم، فيمنعونه.

فالشاعران، القديم والمعاصر كلاهما افتخر بالعرب وإن كان فخر أبي الطيب خاصًا بقومه، وفخر عبد الرحيم عامًا ليشمل العرب كلّهم.

إن إنعام النظر فيما قاله عبد الرحيم يفضي إلى معاناته المادية والنفسية، التي أرخت بذيولها على الوطن وأهله بسبب صنيع الحليف ممثلًا بوعد بلفور، والشيء نفسه كان الشاعر القديم يعيش المعاناة المادية والنفسية بسبب ما صنعه الأمير سيف الدولة والوشاة، فعبد الرحيم تفاعل مع نص أبي الطيب المتنبي ووظفه توظيفًا فنيًا، علمًا أن ما استعاره الشاعر المعاصر من الشاعر القديم هنا كان نتفة من التركيب اللغوي ممثلة بـ: "غوث الطريد"، وسعة من المضمون العام، وكان في ذلك كله تعبيرًا عن معاناته الخاصة

٥١- موسى ربابعة، الاقتباس والتضمين في شعر عرار، مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٩م، ص ١٥.

٥٢- الديوان، ص ١١٧.

٥٣- أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين، الديوان، شرح: أبي البقاء العبكري، ضبط وتصحيح: مصطفى السقا وآخرين، دار المعرف للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م، ج ١، ص ٣٢٣.

وتجربته الذاتية. وما قول عبد الرحيم:

وإذا السيوف كأنها كواكب تهوي تلامعُ في العجاج الأكدر(٥٤)

إلا تأكيد لتفاعله مع النص القديم لبشار بن برد إذ قال:

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ(٥٥)

فعبد الرحيم يفخر بشدة العرب في حربهم مع الخلفاء ضد العثمانيين، وبشار بن برد يفخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد، وإذا كان عبد الرحيم قد استحضر الموقف التراثي هنا إلا أنه بعث فيه موقفًا جديدًا، يعبر عن إحساس بالألم والوجع، بسبب عدم تقدير الحلفاء لما أسداه العرب من بسالة وشجاعة في حربهم ضد العثمانيين، فبدلًا من منحهم الحرية كبلوا بوعد بلفور، إنّ الشاعر المعاصر هنا يضمن بيته المعنى التراثي نفسه مع الاختلاف في ظروف الحدث، فبشار يعلي من شأن صنيع مواليه قيس، وعبد الرحيم ينتقد صنيع الحلفاء، ولعلّ تضمين قول بشار لا يقف عند توظيف ما استلهمه الشاعر المعاصر توظيفًا فنيًا فحسب، وإنما امتدّ إلى حذقه وبراعته في التضمين من خلال الرفعة المكانية للبيت المضمن، فبيت بشار أورد "مثار النقع" في الصدر، بينما أورد عبد الرحيم "العجاج الأكدر" في العجز، وأورد بشار "أسيافنا ليل تهاوى كواكبه" في العجز، بينما أورد عبد الرحيم "السيوف كأنهن كواكب" في الصدر، وهذا ما يمكن تسميته بـ: "تبادل المواقع"، وامتد الحذق والبراعة في التضمين هنا أيضًا إلى التراكيب التي عمل الشاعر المعاصر على تغير شكلها وثبات مضمونها، إذ قال "العجاج الأكدر" لتضارع "مثار النقع" عند بشار، وقال أيضًا "السيوف كأنهن كواكب"، لتضارع "أسيافنا ليل تهاوى كواكبه" عند بشار.

ولعلّ استحضار طاقة البناء الصرفي للغة ـ إذ قال عبد الرحيم "تهوى" بصيغة المضارع الذي يعني تكرار سقوط الكواكب، ليضارع قول بشار "تهاوى" بصيغة الماضي الذي على وزن "تفاعل"، والذي يوحي بتكرار سقوط الكواكب أيضًا ـ ليؤكد عمق تفاعل الشاعر المعاصر مع النص القديم. وعبد الرحيم في قوله مناجيًا قلبه:

قال وإنْ هُوِّلتَ لي ذممها "فَحَسُنَ في العَيْنِ ما قَدْ تَوْدْ"(٥٦)

٥٤- الديوان، ص ١١٧.

٥٥- أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، د.ت.

٥٦- الديوان، ص ٢٨٩.

يستحضر الموقف التراثي ليصور تصميم قلبه على حب من حسن في **العين**، وبتصويره هذا يحيي تجربة الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة إذا قال:

فتضاحكن وقد قلن لها: حَسُنَ في كل عين من تود(٥٧)

فعمر في بيته الشعري يعمق المقولة المعروفة عند **النقاد فهو المعشوق لا العاشق، والمطلوب لا** الطالب، والشاهد على ذلك، ما رددته النسوة في عمر لتلك العاشقة: **فهو المنى الذي تنشده كلّ فتاة لما يتوافر فيه من خصال.** إن تضمين عبد الرحيم لعجز بيت عمر دافعه الانسجام بين ما حدث في القديم وما حدث معه، ومعنى الكلام أن النص التراثي يحمل رؤية تماثل رؤيته، فاستلهمها بوعي أفضى إلى منح بيته **الشعري حياة وخصوبة.** ولعّل عبد الرحيم يظ□من شعره صدر بيت من التراث بمعناه لا بحرفه **ونصه، فقوله:**

ونفوسُ الخَلقِ أعلاها التي إنْ تَعِشْ وماتت وهي حُرّهْ(٥٨)

أخذه من المتنبي إذ قال:

عش عزيزًا أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنَا وَخفْقِ البنودِ(٥٩)

فأرقى نفوس الخلق وأعلاها عند عبد الرحيم من تعيش عزيزة ممتنعة من الأعداء أو تموت موت الكرام، إن ما قاله عبد الرحيم في بيته الشعري هو إحياء لتجربة أبي الطيب المتنبي الواردة في بيته **الشعري** سابق الذكر، وما كان لجوء الشاعر إلى إحياء تجربة قديمة إلّا لأنها تفصح عن رؤيته، وتكشف عن موقفه تجاه الحياة.

ومن خلال تأمّلي نماذج التضمين في شعر عبد الرحيم لحظت الدراسة أنه لم ينسخ القديم، ومعنى ذلك لم يأت بألفاظ تراكيبه وإنما استلهمه واستنطقه، دافعه جلاء ما يرتئيه وتعميقه، وهذا كثير في شعر الشاعر، كقوله إبان إصابته وحمله على أكتاف أصدقائه:

احملـــوني احملـــوني واحذروا أن تتركوني
وخذوني لا تخافوا وإذا مِتّ ادفنوني(٦٠)

٥٧- عمر بن أبي ربيعة المخزومي، **الديوان، تحقيق:** علي مالكي، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ١٨٦.

٥٨- **الديوان، ص ٢٦٣.**

٥٩- **أبو الطيب المتنبي، الديوان، ج ١، ص ٣٢١.**

٦٠- **الديوان، ص ٧٥١.**

فالشاعر هنا يناجي أصحابه ملتمسًا ألا يتركوه وحاثًا أن يحملوه، فلعلّ عبد الرحيم في بيته يحكي حالته النفسية، إذ أصابه رصاص العدو، فهو يتشبث بالحياة، ويتعلق برفاق دربه، ويخشى وحشة العزلة وما تجرّ عليه من هلاك إنْ تركه أصحابه ولم يأخذوه.

إن ما ذهب إليه عبد الرحيم كان قد استحضره من التراث الذي استنبطه لأنه يفصح عن رؤيته ممثلًا بمقولة مالك بن الريب:

أقول لأصحابي ارفعوني، فإنّه ... يقرّ لعيني إنْ سُهَيْلٌ بداليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا ... برابية، إني مقيمٌ لياليا
أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلة ... ولا تعجلاني، قد تبين شانيا
خذاني فجُرّاني بثوبي إليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا(٦١)

فالأبيات الشعرية تفضي إلى تعلق مالك بن الريب بالحياة القديمة وبأرض الوطن، وما إشارته إلى سهيل الذي يطلع من نواحي وطنه إلا دليل واضح على التعلق بالحياة وبالأرض، وعنى الكلام أن مالكًا كان يشعر بغربة المكان الذي بدوره ولّد فيه الوجد لرؤية سهيل، لقد استغل الشاعر المعاصر ما قاله مالك بن الريب إذ اتكأ على المضمون دون السياق التركيبي اللغوي لأنه يفصح عن رؤيته وينسجم مع التوجه الذي انطلق منه. وقوله أيضًا:

أخلصْتُكِ الودّ وجازيتني ... بالغَدْرِ ما أظلمَ هذا الجزاء(٦٢)

فعبد الرحيم في بيته الشعري هنا يشير إلى إدانته كبرياء صاحبته التي أخلصها الودّ وجازته بالغدر، مستلهمًا صوتًا من التراث ممثلًا بقول أبي فراس الحمداني، إذا قال فيمن سحره وجمالها وأحزنه غدرها:

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلّةٌ ... لإنسانة في الحيّ شيمتها الغَدْرُ(٦٣)

إن عبد الرحيم في استلهامه قول أبي فراس واستنطاقه دون أن يستنسخه بحرفه ونصه، يعني إفادته من الصوت التراثي المشابه لصوته، إذ رأى فيه تناغمًا وانسجامًا مع موقفه، "وهذا من شأنه أن يختصر المسافة بين الصوتين ليلتبس كلّ منهما صاحبه، فكلاهما رهين موقف تأزم أشبهت ليلته

٦١- أبو علي القالي البغدادي إسماعيل بن القاسم، **ذيل الأمالي والنوادر**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٣٦.

٦٢- **الديوان**، ص ٢٠٨.

٦٣- أبو فراس الحمداني، **الديوان**، رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ١٥٨.

بارحته"(٦٤):

وكقوله أيضًا ـ إذ يضمن شعره مضمون بيت كامل من التراث بمعناه لا بحرفه ونصه ـ في محنة الحبّ:

لا تحملي من ذكر عهد الهوى إنّ الهوى صعبٌ وحِمْلٌ يؤودْ(٦٥)

فالشاعر هنا يستنطق بيت أبي نواس:

حامِلُ الهوى تَعِبُ يستخفه الطَرَبُ(٦٦)

إذ وجد صوتًا يؤكد صوته ويؤكد وحدة التجربة الإنسانية، لذا لجأ للإفادة منه دون أن يصرف البيت المضمّن عن معناه الأصلي، فالشاعران القديم والمعاصر كلاهما عاش محنة الحب.

وكثيرًا ما يضمن عبد الرحيم شعره بنصوص مستعارة من التراث، ولكنها استعارة كانت تستثير خياله فيأتي بما هو ضدها ومخالف لها، ومعنى الكلام أن عبد الرحيم يحوّل البيت المضمّن عن موضوعه الأصلي إلى موضوع جديد يخدم التوجه الذي ينطلق منه، وأنْ يصرف الشاعر المضمن وجه البيت المضمن عن معنى قائله إلى معناه يعد من التضمين الجيد(٦٧) ومثال ذلك قوله مفتخرًا بنسبه:

فأنا الفخورُ بأنني لا ينتمي للعُجْم أخوالي ولا أعمامي

إن تسألوا عني إلى مَنْ أنتمي فإلى رُعاةِ النوق والأنعامِ(٦٨)

فعبد الرحيم أخذ ما ضمنه شعره من قول بشار بن برد ـ ولكن بما هو ضده ومباين له ـ الذي عرف بشعوبيته وكرهه للعرب وتفضيل الأعاجم عليهم:

وقيصر خالي إذا عددتُ يومًا نسبي(٦٩)

٦٤- انظر: رجاء عيد، لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٢٩، وانظر: موسى ربابعة، الاقتباس والتضمين في شعر عرار، ص ١٦.

٦٥- الديوان، ص ١٩٩.

٦٦- أبو نواس الحسن بن هاني، الديوان، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٥٣م، ص٢٢٧.

٦٧- انظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٨٥، وانظر: موسى ربابعة، الاقتباس والتضمين في شعر عرار، ص ١٥.

٦٨- الديوان، ص ٢٤٢.

٦٩- الأغاني، ج١٤، ص٥٦.

وقوله أيضًا مخاطبًا صاحبته:

دعيني فلا قلبي عليك بعاطف حنانًا ولا دمعي لدى الفرقة هامي(٧٠)

أخذ عبد الرحيم مضمون بيته من مقولة ديك الجن في زوجه التي قتلها:

ما كان قتيلها لأني لم أكُنْ أبكي إذا سقط الغُبَارُ عليها(٧١)

مخالفًا إياه، فديك الجن ـ الذي قتل زوجه على الرغم من حبّه إياها ـ كان يبكي إذا سقط الغبار عليها، بينما عبد الرحيم "ولا دمعي لدى فرقة هامي".

وكان عبد الرحيم يضمن أحيانًا شعره لفظة في شعر التراث ذات طاقة تعبيرية كبرى في السياق التركيبي الذي وردت فيه، فقوله يفخر بالعرب:

فاستجارَ الحقّ المضيّع بالغُرْ بِ فكانوا الغياثَ للمستجير(٧٢)

يشير إلى أن العُرب قاطبة ملاذ المستجير إذ يعيدون له "الحقّ المضيّع"، فالشاعر ركّز هنا على لفظة "المستجير" الذي وجد في العُرب ملاذًا ونصرة له، إن ما ذهب إليه عبد الرحيم استعارة من قول طرفة بن عبد في فخره بقومه:

لنا هَضْبَةٌ لا يَدْخُلُ الذُّلّ وَسْطَها ويأوي إليها المستجيرُ فَيُعصَما(٧٣)

فقوم طرفة يغيثون المستجير ويحفظون له أمنه وسلامته، فحديث الشاعرين يعكس الحالة النفسية المتأزمة لدى المستجير إذ يعيش في القلق بسبب ضياع حقه وسلبه الأمن والسلام، وهو حديث ينطوي على صوتين جاءا من التراث والمعاصرة، ولكنهما صوتان متناغمان ومنسجمان، إذ يؤكدان وحدة التجربة الإنسانية.

ومن الألفاظ التراثية التي وظفها عبد الرحيم في شعره أيضًا ـ لفظة "أعددت"، إذ يقول في معرض غزله :

أعْدَدْنَ للحَربِ العَوَان صفائر الشـ ـشَعْرِ الجَثِيل لِقَيْدِنَا وَذَوائبا(٧٤)

٧٠- الديوان، ص ١٩٧.

٧١- الأغاني، ج٣، ص ١٣٥.

٧٢- الديوان، ص ٢٥٥.

٧٣- طرفة بن عبد، الديوان، ص ١٣٩.

٧٤- الديوان، ص ٢٩١.

أخذ الشاعر ذلك من غير شاعر تراثي، من يزيد بن خذاق الشني:

أَعْدَدْتُ سَبْحَةَ بَعْدَما قَرِحَتْ ولبستُ شِكَّةَ حازم جَلْدِ(٧٥)

ومن عبد قيس :

فأصبحتُ أَعْدَدْتُ للنائبا تِ عِرْضًا بريئًا وعضبًا صقيلًا(٧٦)

ومن ثعلبة بن عمرو العبدي:

وصفراء من نَبْع سلاح أعدها وأبيضَ قَصّالُ الضريبةِ جائفُ(٧٧)

ومن زِبان بن سيّار الفَزاري:

أَعْدَدْتُها لبني اللقيطة فوقها رُمْحي وسيفٌ صارمٌ وشليلُ(٧٨)

ومن امرئ القيس:

وأعددت للحرب وثابة جَوَادَ المَحَثّةِ والمَرْوَدِ(٧٩)

ومن أوس بن حجر:

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها نابًا من الشر أعصلا(٨٠)

ومن أبي قيس صيفي بن الأسلت :

أعددتُ للأعداء موضونة فضفاضةً كالنهي بالقاع(٨١)

ومن عمرو بن معد يكرب:

وأعددت للحرب فضفاضةً دلاصًا تثنى على الراهش(٨٢)

٧٥- المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق: محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٦٤م، المفضلية رقم ٧٨.

٧٦- المفضلية رقم ١١٧.

٧٧- المفضلية رقم ٧٤.

٧٨- المفضلية رقم ١٠٢.

٧٩- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، بمصر، ١٩٦٩م، قصيدة ٣٥، ص ٨٣.

٨٠- أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: محمد يوسف نجم، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، قصيدة ٣٥، ص ٨٣.

٨١- أبو قيس صيفي بن الأسلت، الديوان، ص ٧٩، البيت رقم ٦.

٨٢- عمرو بن معد يكرب، الديوان، تحقيق: هاشم الطعان، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٢١.

ومنه أيضًا :

أعددت للحدثان سا بغة وعدّاء علندي(٨٣)

فلفظ "أعددت" في النصوص التراثية يقترن بصور الأسلحة التي يعتدها العربي لدرء أخطار الفناء، أما في شعر عبد الرحيم، فهو لفظ اقترن بما أعدّته الحسان لجذب العاشقين، فعبد الرحيم هنا حوّل مسار الفعل "أعددت" في التراث وأخضعه لمساره إذ وضعه في سياق جديد يتمثل بالغزل، بينما كان في سياقه الأصلي مفتاحًا لانثيال الأسلحة البتارة والخلابة والبراقة، وعمل عبد الرحيم هذا يعني قدرته على استغلال كلّ ما يفيده، ومعنى الكلام أن مادة "أعددن" عند الشاعر القديم المتمثلة بالحسان وأشيائهن توازي مادة "وأعددت" عند الشاعر القديم المتمثلة بالسلاح وأنواعه، فكلاهما فتّاك، وهذا بالتالي يشير إلى قدرة الشاعر المعاصر على استغلال ما يفيده من التراث ويحقق رؤيته.

التراث الغوي:

بعد استقراء نتاج عبد الرحيم في **ديوانه**، لحظ البحث تمسك الشاعر باللغة العربية الفصحى التراثية، ولعل مردّ ذلك يعود إلى ما تحمله اللغة التراثية من دلالات عند عبد الرحيم، فهي آية الثبات في وجه المستعمر، وهوية تجذر تواجه معاول المستعمر في الطمس والمحو، وآية انتماء إلى الأرض العربية والجنس العربي. والتراث اللغوي في شعر عبد الرحيم كثير، منه المفردات التالية:

الأسنة والقنا والسمهري في قوله:

وإذا به أمر نبيته لهم تحت الأسنة والقنا والسمهري(٨٤)

ومفردة غضنفر في قوله:

إذا عتاقُ العرب توري في اللجى قدحًا وتصهل تحت كل غضنفر(٨٥)

ولفظ جارحات الفلا في قوله:

وجسم تجدل فوق الهضاب تَنَاوُشُهُ جارحات الفلا(٨٦)

٨٣- عمرو بن معديكرب، الديوان، ص ٦٨.

٨٤- الديوان، ص ١١٧.

٨٥- المصدر نفسه.

٨٦- الديوان، ص ١٢٢.

ولفظ أُسد الشرى:

فمنه نصيبٌ لأُسد السماء ومنه نصيب لأُسد الثرى(٨٧)

ولفظ ريح الصبا :

كسا دمه الأرض بالأرجوان وأثقل بالعِطر ريح الصّبا(٨٨)

ولفظ دكدكت:

لو حمّه انتاب الهضاب لَدكدكتْ منه الهضاب(٨٩)

ولفظ قارعات:

برزت فيها المصوناتُ ضحى صارخات قارعات للخُدود(٩٠)

ولفظ نجيع:

ويُزفون عليهم حُلَلٌ من نجيع الحرب تُزري بالبرود(٩١)

ولفظ العوالي:

كثُري ما شئتِ يا سودَ الليالي فأبو الطيب لا يخشى العوالي(٩٢)

ولفظ النمارق:

نقضي على حدّ الأسنة لا النَّمارقِ ولا الوسائد(٩٣)

ولفظ الجلامد:

ونقابُل الظلمَ الفريَّ بهمة تفري الجلامدْ(٩٤)

٨٧- المصدر نفسه.

٨٨- المصدر نفسه.

٨٩- المصدر السابق، ص ١٢٤.

٩٠- المصدر السابق، ص ١٣٢.

٩١- المصدر السابق، ص ١٣٣.

٩٢- المصدر السابق، ص ١٥٥.

٩٣- المصدر السابق، ص ١٦٢.

٩٤- المصدر نفسه.

ولفظ الصفائد:

ونذيب في النهار الجهاد وحرها عنا الصفائد(٩٥)

ولفظ لألاء ولفظ الغاسق:

أم غير لألاء الظبا والقنا يُزيلُ من قلبي دُجى الغاسق(٩٦)

ولفظ الغُسُر:

وخالفتُ أهلي وعادَيْتُهمْ وهم مثلما قد علمت الغُسُرْ(٩٧)

ولفظ برزَخ:

واعبُرُ برزَخَ هذي الحياة وكُل عناء له مُسْتَقَرْ(٩٨)

ولفظ ضحضاح:

فيه إنْ همَّ الفتى فليقتحم لا يَخفْ ضَحْضاح ما ينوي وَغَمْرَه(٩٩)

وجملة القول فيما استقرأته الدراسة من نصوص شعرية اتكأت على النصوص القرآنية في التعبير عن مرئيات عبد الرحيم ـ أن الشاعر استلهم نصوصًا قرآنية تتراوح بين أجزاء من الآيات في غير قليل، وآيات تامة في غير كثير، وكان استلهامه هذا يفرغه في قسم من بيته الشعري، فكثيرًا ما يكون موضعه في العجز، وقليلًا ما يكون في الصدر، ولحظت الدراسة أيضًا أن الشاعر في استلهامه النصوص القرآنية، كان أحيانًا يعمل على تحويلها عن مسارها الأصلي لتتخذ مسارًا جديدًا، يوظف من خلاله تجربته الذاتية، ورؤيته لعالمه وموقفه منه، ولحظت الدراسة أيضًا أن الشاعر لم يكن في اتكائه على النصوص القرآنية اتكاءً حرفيًا، والعكس صحيح، فلعله يفيد من مضمون النص القرآني، دون نسخ تركيبه اللغوي، وبخاصة عندما لا يعمد إلى تغيير المسار الأصلي للنص القرآني، أو عندما لا يقصد من اقتباسه للنص القرآني توظيفه، وإنما اختزانه في لا وعيه، مما جعل حضوره في شعره دون قصد أو عمد، ولعله يفيد من سياقه التركيبي بعد أن يحدث فيه تقديمًا وتأخيرًا أو تبديلًا لبعض مفرداته.

٩٥- المصدر السابق، ص ١٦٣.

٩٦- المصدر السابق، ص ١٧٧.

٩٧- المصدر السابق، ص ٢١٥.

٩٨- المصدر السابق، ص ٢١٤.

٩٩- المصدر السابق، ص ٢٦٠.

وفيما استقرأته الدراسة من نصوص شعرية اتكأت على نصوص شعرية تراثية أيضًا، لحظت أن عبد الرحيم كان يستحضر الشعر القديم ويصدر عنه في الشعر المنتج، ولعله لم يحوّل ما استحضره من شعر قديم عن موضوعه الذي وضع له، ولعلّه أيضًا يحوله عن موضوعه الأصلي إلى موضوع جديد يكسبه بعدًا جديدًا، وهذا يدل على قدرة الشاعر المعاصر على استغلال كل ما يفيده ويثري رؤيته، ومما لحظته الدراسة أيضًا أن عبد الرحيم في استحضاره الموقف التراثي الشعري كان يستعير صدر البيت أو عجزه أو مضمونه دون سياقه التركيبي اللغوي، أو يستعير نتفة من السياق التركيبي، أو لفظة ذات طاقة تعبيرية كبرى في سياقها الذي وردت فيه، ولعلّ النص المستعار يعمل على استثارة خيال الشاعر المعاصر، فيأتي بما هو ضده ومخالف له. ولحظت الدراسة أيضًا تمسك عبد الرحيم باللغة العربية الفصحى التراثية، دافعه إنها آية الثبات والتجذر والانتماء. وبعد هذا التطواف لعلّه يمكن القول إنّ موضوع التراث سيظل شاغل الشاعر المعاصر، وشاغل النقاد أيضًا، فالتراث بما يتوافر فيه من طاقات متفجرة في مجال الدلالة ـ يتفاعل كل التفاعل مع مشكلات واقع الإنسان المعاصر التي لا تختلف في كثير عن مشكلات سابقيه.

Elements of Heritage in the Poetry of ʻAbd al-Raḥīm Maḥmūd.

The paper attempts to show the links of contemporary poets of Arabic with the classical heritage. These links, the writer contends, work to strengthen modern literature, enrich its concepts and renew life of poetry by its vital source which is traced to pre-Islamic times. In addition to conceiving varied patterns and models, the poet takes inspiration from pre-Islamic poetry and the spirit of the literary revolution witnessed in Abbasid era, according to the writer. Heritage, as the critics hold, is a living force which pushes the contemporary poet towards future, supplying endless energy and inspiration. The paper, tries to trace elements of heritage in the poetry of ʻAbd al-Raḥīm Maḥmūd. He shows the extent of this influence on the form and tenor of this contemporary Palestinian poet which, as the writer shows, carries a conspicuous element of Islamic content as well.

****